في ١ كورنتس
يتجلّى وجه بولس النبيّ والرسول

كثيرون أُعجبوا ببولس، الرسول والشهيد، بعمله وبراعته، بتفوّقه ونجاحاته، برقّته وصلابته، بشجاعته وجرأته، بشغفه بالمسيح وبتفعيل إيمانه به.

كثيرون قرأوه أو رغبوا في ذلك، فهموه أو اعترفوا بصعوبة ذلك، فقالوا مع أسلافٍ لهم من تلاميذ يسوع بالذات: «إنّ هذا الكلام صعب! من يقدر أن يسمعه؟!» (يو ٦: ٦٠)؛ أو مع رأس الرسل: «أخونا الحبيب بولس» يكتب رسائل «فيها أمورٌ يصعب فهمها، ويحرّفها الجهال وضعفاء النفوس» (٢ بط ٣: ١٦)!

منهم من صاروا من الصحابة، فعاونوه وناصروه، ومنهم فضّلوا الظلمة على النور، فخاصموه والعداء ناصبوه!

آخرون لم يجرؤوا على المحاولة، فلا أدركوا ولا جهلوا، فأطلقوا ادّعاءات المعرفة وهم عنها غافلون!

وغيرهم اقتحموا، وتبحّروا، وغاصوا، فإذا بشباكهم مملوءة بأجود أنواع المعرفة، وبأغنى اختبارات الإيمان، وأسمى خلجات المحبّة.

لو كانت الأمور على خلاف ذلك، لكان في ذلك العجب! «فكلمة الله حيّة وفعّالة، وأمضى من كل سيف ذي حدّين» (عب ٤: ١٢)، لا «يقبلها ويأخذها إلى خاصته» (رج يو ١: ١١) إلاّ من كان منفعلاً بها ومتفاعلاً معها، وبيته كقلب يوحنا القائم عند أقدام الصليب، مكنوساً، نظيفاً، لائقاً، مُعَدّاً من الأساس، وفق تصميم الله، لاستقبال هذا الكنز العظيم!

هُم الأنبياء ومن بعدهم الرسل، أنبياء العهد الجديد، وكلّ أصفياء الله وأحبّائه، مَن «هم على السمع»، و«يلتقطون الإشارة»، و«الرمز»، و«الغمزة» (إن جاز التعبير)، لأنّهم أبناء الشركة، واللّقاء، والاتّحاد بالله وبإخوتهم البشر.

بولس، «الإناء المختار»، كم يحلو أن نكتشف في طلّته العظيمة، وجهَ النبيّ وقامته، صفاءه وبراءته، خوف الله وحبّه له، شهادته الصارخة والمتواضعة، كما استشهاده الصامت والمدوّي في آنٍ معاً، الاستغاثة عند تخلّي خاصّته عنه وفي بستان الزيتون، والمُزلزِل عند حَمْل البشارة والذّود عنها، لا بل عن الحياة والكرامة والحريّة!

بولس، رسول البشرى السارّة إلى معشر الكورنثيّين «الجالسين في الظلمة وفي بقعة الموت وظلاله» (متى ٤: ١٦)، في الوهم والجهل والعبوديّة، هو نبيّ الكلمة وصوتها في تلك الديار، التي، عندما نصبتِ الصنميّةَ معبوداً لها، استُعبدت بدل أن تَعْبُدَ، وحصدت الأشواك فالموت بدلاً من الغلات والحياة، فإذا بها في الوهدة العميقة، التي تضيّق الأفق والتبصّر، وتحجب الرؤية والرؤيا، وإذا بها ظالمة للعقل، عطيّةِ الله العظيمة، وسائرة في الطريق الرحبة المؤدّية إلى الهلاك! إلى جماعة كورنتس هذه كتب بولس رسالته الأولى، مقرّعاً وموبّخاً، ساخراً وناقداً، موجّهاً ومعلّماً، مدبّراً وراشداً، لتعود روعةُ البدايات إلى الكنيسة التي أسّس «بدموع العينين»، وأحبّ حبّاً جمّاً، وتنجلي من جديد بصمات لمسة الخالق المُبدع، بعد أن تنكشح عن محيّاها ظلمات البرقع الفاصل بين الحقيقة والوهم، فتتجلّى من جديد عروسةً المسيح بهيّةً، مزيّنةً بالطاعة، عامرةً بالسلام، مملوءةً نعمة، وناعمةً برغد المحبّة.

الرسالة الأولى إلى الكورنثيّين هي علّة خلاص لهؤلاء، ولنا، ولكثيرين من بعدنا. فلنُقْبل إليها خاشعين، ولنقرأها ونتأمّل في غناها ساجدين، فنغوص في مداها الرحب بمهابة، ونسمو باندفاع إلى حيث يجتذبنا الآب، نصغي إلى صوت بولس الصارخ في أرجاء كياننا، ولا «نقسّي قلوبنا» (مز ٩٥: ٧-٨)، لكي نَنْعَم بلقاء حميم مع الابن الحبيب، ومع الله الآب مرسله، ومع الروح القدس المحيي، لقاء هو الغاية السميا لوجودنا، ومرمى أمانينا التي تشدّنا أبداً إلى مَن «أحبّنا أوّلاً»!

أ. أيّوب شهوان